على هامش الحرب الدائرة الحاضرة :

مصر وطريق الهند

في القرن الثامن عشر

— ٣ —

لجمال الدين الشيال

﴿ المنافسة تبدأ بين انكلترا وفرنسا للسيطرة على طريق مصر — البحر الاحمر ﴾ — في هذه الآونة كانت المنافسة بين انكلترا وفرنسا على أشدها . وقد وجهت هذه الحوادث نظر الفرنسيين نحو مصر ففي سنة ١٧٧٧ أرسل إنسلي الى حكومته تقريراً يخبرها فيه بأن البارون دي توت Baron de Tott المفتش العام للتفور التجارية الفرنسية في الشرق قد زار القاهرة سابقاً لامضاء معاهدة تجارية مع المماليك [1] . وذكر انسلي في تقريره أيضاً أن بعثة دي توت كانت تعنى بأموراً أكثر جدية من هذه المعاهدة وانها كانت تعنى بدراسة الوسائل الممكن اتباعها لغزو مصر والوسائل الممكنة لفتح طريق تجاري فرنسي بين مصر والهند واعادة حفر الخليج الذي بين النيل والبحر الأحمر، كان لهذا الحادث الفضل كل الفضل في تقريب شقة الخلاف بين بلدوين Baldwin من ناحية وإنسلي Ainslie والحكومة الانكليزية وشركة الهند الشرقية من ناحية أخرى، وسافر بلدوين في سنة ١٧٧٨ الى القسطنطينية ليسعى هو وإنسلي لدى الباب العالي كي يسمح للسفن الانكليزية التي تحمل المراسلات بالوصول الى السويس ولكن الحكومة العثمانية رفضت هذا الطلب وحذرتهما من السماح لأية سفينة بالتقدم شمال ثغر جدة . وعاد بلدوين الى القاهرة مظهراً الطاعة ولكنه فيما بينه وبين نفسه لم يقلع عن الفكرة لأنه كان لا يزال يعتقد بأفضلية طريق السويس [2]

وأخيراً اقترح إنسلي على وزارة الخارجية ان تستعمل طريقاً آخر لإيصال مراسلاتها الى الهند . هذا الطريق يبتدىء من حلب ويخترق العراق الى البصرة ومنها الى بمباي . . . (وقد استعمل هذا الطريق بعد ذلك بقليل مدة احتلال الفرنسيين لمصر ١٧٩٨ — ١٨٠١) ولكن هذا الطريق لم يكن بالطريق الآمن ذلك لان العربان كانوا يغيرون على المسافرين فيسلبونهم ما معهم وقد يقتلونهم

(١) Ch. Roux, Op. Cit. P. P. 94-95 (٢) Hoskins, Op. Cit. P. 20

ولم تكد تبدأ سنة ١٧٧٩ حتى بدا للجميع ان طريق السويس على وشك ان يهجر ، فقد كان الباب العالي عاقداً النية الجازمة على القضاء على تجارة الفرنج في البحر الأحمر وهذا الحادث التالي يدل دلالة واضحة على قوة عزم الباب العالي . ففي الرابع والعشرين من شهر مايو ١٧٧٩ وصلت الى السويس سفينتان تحملان العلم الدانمركي ولكن يقودها رجل انكليزي اسمه جورج مور G. Moore وكان مور يحمل معه خطاب توصية من حاكم بنغال الى الأمير المملوكي في القاهرة وكان معه في السفينة رجل ألماني يدعى فان درفلدن Van der Velden يحمل أيضاً خطاب توصية من نفس الحاكم الى بلدوين Baldwin

أما بلدوين فلم يجرؤ على مساعدة القوم. ولكنهُ عندما وصله أوامر الأمير المملوكي بالاعتناء بتجارتهم تقدم وساعدهم حتى أفرغوا بضاعتهم . . وسار مور الى القاهرة تاركاً صحبه في مهمتهم وبعد قليل اتخذ الباقون (وهم هذا الألماني وأربعة من الانكليز وفرنسيان) طريقهم في قافلة تحمل تجارتهم نحو القاهرة وقد بدأوا رحلتهم آمنين غير مسلحين أو مستعدين لمقابلة ما عساه يعترضهم من أخطار، ذلك لأن الأمير المملوكي لم يؤمنهم على أنفسهم وتجارتهم فحسب، بل زوّدهم بالجمال التي تحمل تجارتهم نحو القاهرة. ولكنهم فوجئوا بعد ان اجتازوا مرحلة قصيرة من رحلتهم بجماعة من البدو انقضوا عليهم فسلبوهم بضاعتهم التي كانت تقدر بمبلغ ٣٧٫٥٠٠ جنيه بل وسلبوهم ملابسهم التي تغطي أجسادهم وتركوهم عراة حيارى في الصحراء. وقد عاد أودونيل O'Donnell — وهو أحد الاربعة الانكليز — الى السويس . وأما الباقون فقد اعتقدوا أنهم يستطيعون الوصول الى القاهرة فساروا في طريقهم ، ولكنهم سرعان ما ضلوا الطريق فقضوا نحبهم من الجوع والعطش والتعب وضربة الشمس ، الا واحداً من الفرنسيين أنقذه أحد الفلاحين وهو في آخر رمق من حياته

وصل أودونيل O'Donnell الى القاهرة عن طريق السويس وهناك استطاع بمساعدة بلدوين الحصول على مبلغ من المال كية للمساعدة وفي نفس الوقت غيّر الامير المملوكي خطته وأرسل فرقة من جنوده تبلغ المائتي جندي استولت على ما في السفينتين من تجارة . وألقي القبض على مور وبلدوين وأودونيل وأودعهم جميعاً السجن وأرسل البك تقريراً بالحادثة الى الباب العالي كما أرسل بلدوين وأودونيل تقريرهما كذلك الى السير روبرت إنسلي Sir Robert Ainslie

وافق الباب العالي على الاجراءات التي اتخذها أمير القاهرة لأنها تنفيذ لسياسته ورغبته ، كذلك لم يجد إنسلي اهتماماً ظاهراً لنفس السبب وان كان تدسس سياً جديًّا لدى الباب العالي لأمر باطلاق سراح الاسرى ، وهذا ما فعله أمير القاهرة قبل ان يصله امر السلطان لأنهُ أحسَّ الأثر السيء الذي تركه الحادث في دول غرب اوربا جميعاً

أطلق الامير سراح أمراء كلهم ما عدا بلدوين ولكن هذا سرعان ما استطاع الفرار من سجنه وهرب من مصر — تاركاً وراءه جميع ممتلكاته — على سفينة فرنسية حملته الى ازمير Smyrna ومن هناك ارتحل بلدوين الى القسطنطينية حيث بقي شهوراً طويلة يوزع اللوم في حنق وألم على كل من ظنهُ سبباً في هذه المأساة الاخيرة وخاصة على التاجر البندقي ذي النفوذ الكبير كارلو روسيتي Carlo Rosetti ، وعلى رئيس الجمرك افطون قسيس، وفي سنة ١٧٨٠ ذهب بلدوين الى انكلترا محاولاً رفع شكواه الى حكومته متهماً المملي بما كتبه وبخيانة وطنه وعالماً الاتراك في سياستهم، ومحاولاً في الوقت نفسه اقناع حكومته بالسعي لتشجيع طريق السويس وفتحه للتجارة والملاحة. وقد أثبت التحقيق براءة المملي ، ولكن اخبار هذه الحادثة وصلت متأخرة الى الهند وانكلترا ولذلك فقد قصدت في صيف سنة ١٧٨٠ سفينتان انكليزيتان الى مدينة القصير فأنزلت الى البر خمسة من رجالها الانكليز ، وفي القاهرة أسر اربعة منهم وسمح للخامس بالسفر الى القسطنطينية ومعهُ الرسائل التي كان يحملها الى انكلترا ، وهناك فتحت احدى هذه الرسائل ومنها علم الاتراك ان السلطات الانكليزية في الهند لا زالت داثبة السعي لعقد الصلات التجارية مع ممالك مصر تبعاً لنصوص معاهدة سنة ١٧٧٥

وتمكن المملي بصعوبة شديدة من اطلاق سراح مواطنه وارساله الى انكلترا حاملاً من رسائل . اما السفينتان الراسيتان في القصير فقد دهم البدو ملاحيها وقتلوا منهم خمسة حتى اضطر الربان الى اطلاق مدافعه على المدينة

وارسلت الحكومة الانكليزية الى الهند تكرر اوامرها وتشدد في تنفيذها — ألاَّ يتقدم احد بتجارته او سفنه شمال جدة ، ولكن ما حدث لقافلة سنة ١٧٧٩ ، وما حدث لرسل سنة ١٧٨٠ كان أسرع انتشاراً وأعمق أثراً من اوامر الحكومة الانكليزية او الباب العالي أو شركة الهند الشرقية

واذ اصبحت الاخطار التي تحدق بالتجارة الى مصر اكثر من ارباحها ، واذ اصبح الاتصال بمصر يعتمد على السفن المصرية التي تسير بين جدة والسويس فقد هجر هذا الطريق هجراناً تاماً ، ولذلك لم تكد تنتهي سنة ١٧٨٠ حتى أقلعت السفن الانكليزية عن الذهاب الى السويس . ويقرر هذه الحقيقة هوسكنس[1] « By the end of 1780 it was said that English vessels no longer came to Suez »

أثارت هذه المحاولات اهتمام دول غرب اوربا لهذا الطريق ولذلك فقد حاولت النمسا ان

(١) Hoskins, The British Routes to India, P. 25

توجد لها — بالاتفاق مع الباب العالي — وكلاء أو عناصل تجاريين في القطر المصري (في الاسكندرية والقاهرة والمدن الكبيرة) ولكن هذه المحاولات لم تستمر طويلا

(فرنسا تتحز للوثوب على مصر) وكانت فرنسا تصوِّب أنظارها في جشع منذ أمد بعيد نحو مصر ، وكانت تحفزها الى الوثوب ظروفها السياسية وعلاقاتها المعقدة مع انكلترا ولذلك فانها — بعد سنة ١٧٧٨ ، وبعد أن عقدت حلفاً مع المستعمرات الأميركية ضد بريطانيا — تضاعفت رغبتها في شل حركة التجارة الانجليزية في الشرق ، وعارضت اقتراحات كثيرة لتنفيذ هذه الرغبة ، كان بعضها يرمي الى الاتفاق مع ايران للوصول الى الهند ، وكان بعضها يرمي الى احتلال مصر وبلاد العرب وفتح قناة تصل البحرين الأحمر والأبيض

وفي سبتمبر سنة ١٧٨٣ عقدت معاهدة سلمية بين فرنسا وانجلترا وبذلك أسدل الستار مؤقتاً على هذه المشروعات وحاولت فرنسا الوصول الى الاتفاق مع ممالك مصر كما فعل الانجليز سنة ١٧٧٥ وبدأت الحكومة الفرنسية فأرسلت الى ممثلها لدى الباب العالي تسأله اعداد تقرير تقارن فيه بين فوائد الطريقين المؤديين الى الهند وهما : طريق البصرة ، وطريق السويس

وفي سنة ١٧٨٤ وصل الى مصر القائد الفرنسي البحري شفاليه دي تريجيه Chevalier de Truguet ، وقدّر لهُ ان يكون أحسن حظاً وأكثر نجاحاً من سلفه جميعاً ، ذلك أنه كان يحمل الى امراء المماليك في مصر خطاب صداقة من القبطان باشا قائد الأسطول التركي ، ولأنه كان على اتصال وثيق بالتاجر الفرنسي الشهير شارل مجالون Charles Magallon . واذا عرفنا ان مجالون كان قد قضى في مصر ما يزيد عن العشرين عاماً اكتسب في خلالها نفوذاً لا بأس به ، أدركنا كيف سهل على تريجيه الوصول الى الاتفاق مع المماليك

وأمضيت المعاهدة في فبراير سنة ١٧٨٥ بين مراد بك وتريجيه ونصت على ضمان الحريات بأنواعها المختلفة للتجار الفرنسيين كما نصت على تخفيض الضرائب الجباة على التجارة الفرنسية تخفيضاً كبيراً

وعقد اتفاقان آخران : أحدهما بين تريجيه ومدير الجمارك في القاهرة خاصًّا بالضرائب التي تفرض على البضائع الفرنسية عند تفريغها في السويس . والآخر بين تريجيه وأحد مشايخ العربان خاصًّا بالقوافل التي تحمل البضائع الى القاهرة ، وبهذا وصل الفرنسيون الى ما لم يصل اليه الانجليز في محاولاتهم الماضية جميعاً

(انجلترا تراقب المحاولات الفرنسية وتحاول القضاء عليها) أحسَّ رجال الحكومة الانجليزية بالندم بأكل تفوسهم أن أضرُّوا في الماضي على العدول عن طريق السويس ، وانتهز

هذه الفرصة بلدوين ورفع شكواه الى الحكومة عرضه من التهم التي نسبت اليه ، ونشر في ذلك الحين كتيباً صغيراً عن الموضوع أسماه :

"The Communication with India by the Isthmus of Suez, vindicated from the Prejudices which have prevailed against it."

وحلل فيه وجهة نظر كلٍّ من الحكومة الهندية وشركة الهند الشرقية وأثبت بطلانها ، وألحّ على الحكومة الانجليزية أن تعيد النظر لاستعمال هذا الطريق والاّ جاء اليوم الذي يصبح فيه وصول الانجليز الى ممتلكاتهم في الهند تحت رحمة الفرنسيين وباذنهم

وعهد الى بلدوين أن يضع مذكرة يصف فيها كيف يمكن للانجليز إحياء علاقتهم مع مصر من جديد ، وكتب بلدوين المذكرة وبيّن ان الطريقة الوحيدة هي تعيين قنصل انجليزي في القاهرة يرسل من قبله مندوبين له الى الاسكندرية والسويس ، واقترح لتغطية مصاريف هذه الوكالات السياسية حلاً من ثلاثة :

١ — احياء التجارة بين الهند والسويس ووضع ضريبة خاصة على هذه التجارة تغطي هذه المصاريف

٢ — أو الغاء الاحتكار الذي تتمتع به شركة الهند الشرقية وتحويل الاعانة الحكومية السنوية التي تمنح لها الى هذا الغرض

٣ — أو تتكفل الشركة بدفع هذه النفقات من دخلها الخاص

ووافقت الحكومة الانجليزية على الفكرة ، وعُيّن بلدوين نفسه قنصلاً في مصر ، وقبلت الشركة أن تدفع له مرتبه السنوي وقدره ٥٠٠ جنيه ، وحددت مهمته بهذه الأغراض :

١ — أن يعمل لحماية رعايا صاحب الجلالة اثناء تجارتهم ومرورهم بمصر

٢ — أن يسعى لدى الحكومة المصرية للحصول على ضمان لحماية رعايا صاحب الجلالة وتجارتهم في ذهابهم الى الشرق وإيابهم منه

٣ — وهو الأهم — أن يراقب حركات الفرنسيين مراقبة دقيقة وأن يرسل لحكومته التقارير الوافية عن هذه الحركات

وأمرته الحكومة الانجليزية أن يسعى أول ما يسعى الى عقد معاهدة مع المماليك لا تقل في امتيازاتها عن المعاهدة التي عقدتها فرنسا ، وبهذه الحكومة له الطريق في القسطنطينية قبل ان يغادر وطنه الى مصر ، ولكن هذه الرغبة اعترضها فرمان الباب العالي القاضي بتحريم مرور التجارة المسيحية في البحر الاحمر ، فأرسلت الحكومة الانكليزية الى السلي تأمره أن

بجعل أساس عقده مع السلطان الامتيازات التجارية والبحرية السخية التي منحت للانكليز سنة ١٧٦٥

وأقلع بلدوين في اغسطس سنة ١٧٨٦ قاصداً مصر ليتولى منصبه الجديد ، ولكن حظه السيء كان يلازمه اذ كان في مصر وقت وصوله جيش وافد من تركيا لإخضاع الأمراء الثائرين ، كما كانت حالة البلاد الداخلية تتم بأشد أنواع الفوضى

كانت مصر في ذلك الحين مسرحاً لنزاع دائم مستمر بين امراء المماليك ، وكان المتغلب من هؤلاء الأمراء يتولى العرش ، ولكنه لا يلبث إلا قليلاً حتى يغدر به أمير آخر فيأخذ مكانه بعد أن يقتله ، وكان كل أمير يحس أن أجل حكمه قصير ، ولذلك كان يتبع كل السبل المشروعة وغير المشروعة للحصول على المال ، وكان الباب العالي أمام الارتباكات الداخلية ، وتحت الضغط الروسي الملح الدائم لا يستطيع أن يتخذ أية اجراءات إيجابية لإخضاع هؤلاء المماليك . ولكن للكيل طفح أخيراً فقد طلب مراد بك سنة ١٧٨٦ مبلغاً من المال من قناصل الدول الاوروبية في مصر وإلا عمد إلى تخريب كنيسي الفرنسيسكان في الاسكندرية ، ويقال إن هذه الوسيلة كانت من ابتكار القنصل الروسي في الاسكندرية البارون دي تونوس Baron de Thonus

أمام هذا الخطر الداهم لجأت الهيئة الدبلوماسية الاوربية في الاسكندرية الى ممثلي دولها في القسطنطينية ، وذهب وفد من وكلاء هذه الدول جميعاً — ما عدا السويد وانجلترا — يقدمون شكواهم الى الباب العالي ، ووافقت هذه الشكوى هوى في نفس السلطان فقرر العمل على إيقاف أمراء المماليك عند حدهم ، وسرعان ما اتخذ الاسطول التركي أهبته كي يتقدم نحو مصر ، ولم يشأ السلطان أن يسند قيادة الأسطول الا لربانه الأكبر حسن قبطان باشا[1]

أما إنجلترا فمع أنه لم يشترك في هذه الشكوى فقد سر لهذه الاجراءات لأنها ستقضي اذا نجحت على معاهدة سنة ١٧٨٥ الفرنسية المملوكية

ووصل الأسطول الى الاسكندرية التي سلمت دون مقاومة تذكر ، وسار الجيش التركي الى رشيد ثم القاهرة فاستولى عليها بعد أن طارد جيش مراد وابراهيم نحو الصعيد

ويبدو أن الأتراك لو كانوا قد أحرزوا النصر في وقت غير هذا لفرح الانكليز به أيما فرح ، ولكنهم وجموا لهذا النصر وأسفوا له كل الأسف ، ذلك لأن مبعوثهم بلدوين كان قد وصل مصر في ذلك الحين لعقد معاهدة مع المماليك فإذا به يراهم مهزومين فارين إلى أقاصي الصعيد ، وإذا به يرى الاتراك يستولون على أزمة الأمور في مصر فلم يكن أمامه إلا الاعتراف بالأمر

(١) Ch. Roux. Op. Cit. P. 195.

الواقع فاستقر في عمله وعين له مندوبين في الاسكندرية والسويس . وفي مارس سنة ١٧٨٧ قابل القبطان باشا محاولاً تحقيق رغبته بالاتفاق معه [١]، ولكن هذا كان يحمل معه الفرمان القاضي بتحريم الملاحة المسيحية في البحر الاحمر

كذلك كان إنسلي يسعى — من ناحيته — لدى الباب العالي ليحبط مسعى بلدوين ، أما الحكومة الانكليزية فكانت قد عزمت عزماً أخيراً على استعمال طريق السويس وخاصة لتيسير تبادل الرسائل بين انكلترا والهند

وأتى انكلترا حظها الحسن فنشبت الحرب في خريف سنة ١٧٨٧ بين تركيا وروسيا واستدعى القبطان باشا من مصر ، ومنذ ذلك الحين تغير اتجاه السياسة التركية ، وابتدأ القبطان باشا يميل الى الاتفاق مع الانكليز والترخيص لهم بالمرور في البحر الاحمر ، ولكنه فوجىء بمساعدة انكلترا لروسيا إذا اكتشفت تركيا أن انكلترا تمد عدوتها بالسفن الحربية

في أثناء هذا كله كان بلدوين دائب السعي لتحقيق سياسته ، وكان مجهوده مضاعفاً لأنه كان يعمل لتحقيق فكرة يدين هو بها قبل ان تكون مهمة قد كلفته الحكومة بتنفيذها

وأخيراً استطاع بلدوين — في ابريل سنة ١٧٨٨ — ان يرسل الى حكومته نتيجة سعيه، وتتلخص فيما يلي : —

« لقد نجحت في الحصول — من حكومة القاهرة — على حق السماح للمسافرين والرسائل بالوصول الى السويس بسفن الشركة ، وان تفرغ هذه السفن ما تحمل في أمان ، وان يمر هؤلاء خلال مصر في سلام ، ولقد أرسلت الأوامر بهذا الى السويس ، وأنا لا أشك ان هذه الحكومة لو استبدلت بغيرها فانه ليس من العسير الوصول الى الاتفاق نفسه مع الحكومة الجديدة » [٢]

ثم عاد فأرسل الى حكومته كذلك في فبراير سنة ١٧٨٩ يخبرها بوصول سفينتين فرنسيتين الى السويس وانه قد سمح لهما بتفريغ بضائعهما ، وانه يعد العدة لاستقبال سفينتين تجاريتين انكليزيتين آتيتين من الهند وأن : « المرور في مصر الآن حر اذا شاءت الشركة ان تستغله »

***

« انكلترا تفكر في الغاء تصليتها بمصر » كان الاضطراب السياسي في مصر الناجم عن التنازع المستمر بين الوالي العثماني الذي يحاول عبثاً استرداد السلطان الفعلي لدولته وبين أمراء

(١) Hoskins Op Cit P 38

(٢) Hoskins Op. Cit. P. 42

الفرنسيين لتأثير بريطانية مراد وابراهيم والذين كانوا يحاولون هم أيضاً القبض بيد قوية على مقاليد الأمور في مصر. كان هذا الاضطراب عاملاً من أهم العوامل التي زعزعت الأمن وهددت التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب بطريق السويس. ولذلك أخذ الانكليز حوالي سنة ١٧٩٠ يصدفون عن هذا الطريق لأنهم لم يجنوا الأرباح التي أمّلوها من تبادل التجارة بهذا الطريق بل كثيراً ما زادت أرباحهم من التجارة المتبادلة بطريق رأس الرجاء الصالح رغم بعده وكثرة نفقاته على أرباحهم التي جنوها من تبادل التجارة بطريق السويس

ولذلك فقد تقدم اللورد جرنفيل Lord Grenville وزير الخارجية الانكليزية في سنة ١٧٩٢ الى هنري دوندس Henry Dundas وزير الحربية باقتراح الغاء وظيفة القنصلية في مصر لكثرة نفقاتها وقلة نفعها. ولم يلاقِ هذا الاقتراح قبولاً في هذه السنة، ولكن اللورد جرنفيل أعاد الكرة في السنة التالية ١٧٩٣ قائلاً انهُ اذا كانت القنصلية الانكليزية في مصر ذات نفع لشركة الهند الشرقية فلتتولَّ هي أمر نفقاتها والاَّ فلا داعي لبقائها. وكان الاقتراح حلاً حاسماً لأن شركة الهند الشرقية والادارة الهندية لم تقبل واحدة منهما ان تزيد على نفقاتها مبلغاً لا يقل عن ألفي جنيه سنويًّا. ولذلك فقد أرسلت وزارة الخارجية في الثامن من اكتوبر سنة ١٧٩٣ رسالة الى مصر تلغي فيها انتداب بلدوين كقنصل لانكلترا

ولكن لحسن حظ بلدوين وصل هذا الأمر في غير حينه — ذلك انهُ بينما كان جرنفيل يؤكد أن لا فائدة من وجود بلدوين في مصر كان الأخير يؤكد من ناحيته العملية أهمية مجهوداته التي يبذلها في سبيل الامبراطورية. وتفصيل ذلك انهُ في ذلك الحين — أي في اليوم الأخير من شهر يناير سنة ١٧٩٣ — كانت الحرب قد أعلنت بين بريطانيا وفرنسا وأصبح الاتصال بين لندن وبين الهيئات الحاكمة في الهند أكثر أهمية للانكليز منه في أي زمن مضى منذ عين بلدوين قنصلاً في مصر. ولم تكد أخبار اعلان الحرب تصل الى بلدوين حتى أسرع فأرسلها الى الهند قبل أن يصل الى علم الحامية الفرنسية هناك أي خبر عن اضطراب الحالة في أوربا. وبذلك استطاع الانكليز الاستيلاء على Pondicherry وطرد الفرنسيين من الهند

كان هذا عاملاً هامًّا لحفز دوندس Dundas الى ان يشير على وزارة الخارجية كي تعمل على استمرار قنصليتها في مصر وعلى تأييد بلدوين في سياسته لما أبداه من غيرة وحماس في الدفاع عن صالح الامبراطورية

وكان من حسن حظ بريطانيا أن بلدوين لم يغادر منصبه لأنهُ لم يستلم، لسبب غير معروف أمر عزله الصادر في ٨ فبراير ١٧٩٣، ولكنهُ مرض في ذلك الحين وكان مزمعاً السفر الى لندن حينما استدعت الحكومة الانكليزية وكيله الشخصي في لندن وأبلغتهُ شفهيًّا ان يكتب الى

بلدوين بخبره بأن الحكومة تريد ان تستبقيه في مركزه متولية أمر نفقاته حتى تضع الحرب بينها وبين فرنسا أوزارها . وبذلك استأنف بلدوين مهمته وكأن شيئاً من هذا الاضطراب لم يحدث

﴿ بلدوين يعقد معاهدة جديدة مع مراد وابراهيم ﴾ كانت المهمة الاولى لبلدوين عند أول تعيينه قنصلاً في مصر — كما ذكرنا — أن يعقد معاهدة تجارية مع ممالك مصر .. ولذلك انتهز بلدوين هذه الفرصة السانحة وعقد هذه المعاهدة بينه وبين مراد وابراهيم وقد حصل فيها على الترخيص للسفن الانجليزية بالملاحة في البحر الأحمر حتى مدينة السويس وعلى الترخيص للتجارة الانكليزية بالمرور في أمان بين السويس والاسكندرية . وذلك مقابل ان يدفع التجار ضريبة مقدارها ٦ ٪ لممالك مصر — يدفع نصفها التجار الانكليز والنصف الثاني السلاء المقيمون في مصر .. وليس غريباً ان نذكر ان الممالك قد رحبوا بعقد هذه المعاهدة اكثر من ترحيب بلدوين واستطيع ان ندرك لماذا لم يكن هذا غريباً اذا عدنا الى الماضي قليلاً لنذكر أن غالبية ثروة الممالك التي مكنتهم من ان يحيوا هذه الحياة المفعمة بالبذخ والترف .. كان مصدرها الرسوم الجمركية الباهظة التي كانوا يتقاضونها على التجارة المارة عبر مصر من الشرق الى الغرب . فكان لتفريغ البضاعة في الموانىء رسوم خاصة ولحق الا بحار رسوم خاصة وللجمرك رسوم خاصة ولحق الشحن رسوم خاصة وهكذا ... واذا تذكرنا ايضاً ان هذا النبع الفياض قد غاض معينه منذ تحولت التجارة الى رأس الرجاء الصالح .. فليس غريباً اذن ان يحن المماليك الى فطرات تحاول ان تتحدر اليهم من هذا النبع الذي طالما سقاهم اللبن والعسل

وسعى بلدوين من ناحيته سعياً حثيثاً ليتوج هذه المعاهدة بالنجاح فأرسل صورة منها الى حكومته في لندن وأرسل صورة اخرى الى الهند يؤكد للتجار هناك أملهُ المؤكد في ان الحكومة العثمانية سوف توافق على هذه المعاهدة دون شك ودفعه الى تأكيد هذا الأمل ان عدوه الألد إنسلي كان قد ترك مركزه في القسطنطينية ليتولاه من بعده روبرت لستون R. Liston . لكن إنسلي حين عاد الى لندن كان أكبر همه ان يقضي على آمال بلدوين بتسفيه آرائه والتقليل من قيمة مجهوداته لدى وزارة الخارجية . ولذلك لم يحصل بلدوين من حكومته حتى على علم بوصول (A. R.) مذكرته عن المعاهدة

﴿ مصر تثير اهتمام روسيا وفرنسا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر ﴾ وبينما الحكومة الانكليزية تحاول جهدها خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر لكي تقبض يدها من مصر وطريق السويس تماماً ، كانت هناك على الأفق دولتان قويتان تثير مصر اهتمامهما باستمرار .. هاتان هما روسيا وفرنسا

أما روسيا تحت حكم كاترين الثانية فقد كانت تعقد الآمال الطوال وتحاول تنفيذها للوصول الى مياه البحر الأبيض المتوسط . . ولذلك ابتدأت انظارها تتجه نحو مصر . وفي سنة ١٧٨٥ حاولت فئة من مماليك مصر بزعامة ابراهيم بك تعزيز استقلالهم بالتحالف مع احدى الدول الأجنبية ولهذا السبب دخلوا في مفاوضات سرية مع الروسيا. وعلم الباب العالي بهذه المفاوضات فأسرع بإرسال بعض القوى لتعزيز الدفاع عن مصر أمام الغارة الروسية المنتظرة ولكن الروسيا لم تسرع بإرسال هذه الغارة وانتظرت فرصة اشتراكها في الحرب مع تركيا حينما كانت مصر ولا قوة تحميها فأرسلت في أغسطس سنة ١٧٨٨ فرقاطة حربية مزوَّدة بأربعين مدفعاً وتصحبها نقالتان تحملان بعض العدة والسلاح والهدايا الى الأمراء . . ووصلت هذه السفن الى دمياط بقودها القنصل الروسي السابق Baron de Thonus . ولاقت هذه الحملة العتيدة كل عون من القنصل الفرنسي في ثغر دمياط . وكانت مهمة الروسيين في الواقع مساعدة المماليك للقيام بثورة ضد الترك . ولكنهم لم يفلحوا في مهمتهم والفضل في ذلك يرجع الى دهاء الوالي العثماني في مصر في ذلك الوقت وهو اسماعيل باشا

وفي سنة ١٧٩٠ أرسل إنسلي الى حكومته من القسطنطينية تقريراً آخر يخبرها بعزم الروسيين على غزو مصر . . ولكن هذا العزم لم يكن أكثر من خطة وضعت لإرسال ثماني سفن حربية تتخذ طريقها حول رأس الرجاء الصالح وتتفذ الى البحر الأحمر فتهدم جدة وينبع وتضرب مكة والمدينة وقبر الرسول ثم تهدد مصر ذاتها . . كانت هذه خطة وضعت كما ذكرنا ولكن الروس لم يجدوا في أنفسهم الشجاعة الكافية لتنفيذها

***

﴿ مقدمات الحملة الفرنسية على مصر ﴾ أما فرنسا فقد كانت أشد حزماً في اتجاهاتها . . وكانت المنافسة القديمة بينها وبين بريطانيا في الشرق والغرب على السواء تحس الخطر الذي يهددها ويهدد تجارتها اذا تحققت محاولات بلدوين المتكررة للسيطرة على طريق السويس . كذلك كان لرحلات الفرنسيين المتابعة الى مصر في القرن الثامن عشر ، وتخصُّ بالذكر منها رحلتي فولن وسافاري Savary — أكبر الفضل في توجيه أنظار الفرنسيين الى مصر. ولذلك لم تلبث فرنسا ان أعادت انشاء قنصليتها في القاهرة في ١٣ يناير سنة ١٧٩٣ واختارت لها التاجر مجالون Magallon وجاء هذا التعيين قبل الأمر بنزل بلدوين بتسعة أيام مما أثار احتجاج الانجليز لدى حكومتها يطلبون استرداد بلدوين في مصر

وفي اكتوبر سنة ١٧٩٥ وصل الى الاسكندرية Dubois Thainville ومهمته ان يعقد معاهدة مع المماليك لفتح طريق التجارة والمواصلات بين السويس والهند . وسرعان ما استشف

بلدون من هذه المحاولات ان الفرنسيين يزمعون الاغارة على الهند عن طريق مصر بارسال جيش عبر مصر الى الهند لمساعدة Tippo سلطان ميسور والقضاء على السيطرة الانجليزية في الهند . وسرعان ما أرسل تقريره الى حكومته يخبرها بنبأ هذه المحاولات . ومما يؤيد صحة هذا الخبر أن Magallon كتب الى حكومته سنة ١٧٩٥ يخبرها بأنهُ من الممكن ارسال فئة من الجيش عن طريق السويس عند ما تكون الرياح مواتية — وان الجنود لا يمكثون فوق البحر عن هذا الطريق سوى ستين يوماً في حين أنهم يستغرقون ستة أشهر اذا انتقلوا عن طريق رأس الرجاء الصالح كما يقول « لا نفقد رجلاً في المائة ، على حين أننا نكون سعداء لو فقدنا عشرة رجال من مائة لو تتبعنا الطريق الآخر » ولتوضيح فكرته كتب الى وزارة الخارجية الفرنسية يقول :

« بالرحيل من طولون في العشرين من يونيو تستطيع القوى الفرنسية الوصول الى الاسكندرية في العاشر من يوليو والى القاهرة في العشرين منهُ والى السويس في الخامس والعشرين وبعد خمسة واربعين يوماً تصل الى الهند قبل أن يكون الانجليز قد اتخذوا عدتهم للدفاع .. وان عشرة آلاف فرنسي يستطيعون في معركة واحدة اقلاع الانجليز من البنغال حصنهم المتين »

ويقال ان رسائل Magallon كانت السبب الاكبر في اثارة النقاش بين رجال حكومة الادارة حول موضوع الاغارة على مصر فاستدعى ماجالون الى فرنسا لاستشارته . وفي سنة ١٧٩٧ كانت فكرة الحملة على مصر تم على الهند قد اختمرت في رؤوس رجال الحكومة وابتدأت تخطو الخطوات التنفيذية . ومما ساعد على نجاحها ان بلدون الذي كان يقف لكل فكرة من هذا النوع بالمرصاد كان قد وهن منهُ العظم واشتعل الرأس شيباً وضعف بصره فغادر مصر الى وطنه حيث قضى الايام الباقية من حياته .

***

والقراء الكرام يعرفون جيداً ما كان بعد ذلك من أمر الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨ وما كان من أمر فتح قناة السويس في عهد اسماعيل وما نمايه حتى اليوم من طبيعة موقع بلادنا في هذا الطريق الى الهند أغلى درة في التاج البريطاني والى اجزاء الامبراطورية الاخرى كاستراليا أو نيوزيلند . ومن هذا أيضاً تتبين ان هذا الموقع الممتاز يستلزم من كل فرد في مصر ان يكون في نفسه قوة جبارة حتى تستطيع هذه القوة مجتمعة ان تقاوم فتكون درعاً حصيناً يحمي هذه الكنانة المباركة من كل معتدٍ أثيم

« انتهى البحث »